

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ۝ إِن تَبَدُّواْ خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعَفَوْاْ عَن سُوِّ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ۝ ﴿

فيه ثلاث مسائل:

**الأولى:** ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ وتم الكلام. ثم قال جل وعز: ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ استثناء ليس من الأول في موضع نصب؛ أي لكن من ظلم فله أن يقول ظلمي فلان. ويجوز أن يكون في موضع رفع ويكون التقدير: لا يحب السله أن يجهر أحد بالسوء إلا من ظلم. وقراءة الجمهور ﴿ ظَلَمَ ﴾ بضم الظاء وكسر اللام؛ ويجوز إسكانها. ومن قرأ ﴿ ظَلَمَ ﴾ بفتح الظاء وفتح اللام وهو زيد بن أسلم وابن أبي إسحاق وغيرهما على ما يأتي، فلا يجوز له أن يسكن اللام لحقة الفتحة. فعلى القراءة الأولى قالت طائفة: المعنى لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا من ظلم فلا يُكره له الجهر به. ثم اختلفوا في كيفية الجهر بالسوء وما هو المباح من ذلك؛ فقال الحسن: هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه، ولكن ليقول: اللهم أعني عليه، اللهم استخرج حقي، اللهم حل بينه وبين ما يريد من ظلمي. فهذا دعاء في المدافعة وهي أقل منازل السوء. وقال ابن عباس وغيره: المباح لمن ظلم أن يدعو على من ظلمه، وإن صبر فهو خير له؛ فهذا إطلاق في نوع الدعاء على الظالم. وقال أيضاً هو والسدي: لا بأس لمن ظلم أن يتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه ويجهر له بالسوء من القول (١). وقال ابن المستنير: ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ معناه؛ إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول كفر أو نحوه فذلك مباح. والآية على هذا في الإكراه؛ وكذا قال قطرب: ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ يريد المكروه؛ لأنه مظلوم فذلك موضوع عنه وإن كفر؛ قال: ويجوز أن يكون المعنى ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ على البذل؛ كأنه قال: لا يحب الله إلا من ظلم، أي لا يحب الله الظالم؛ فكأنه يقول: يحب من ظلم أي يأجر من ظلم. والتقدير على هذا القول: لا يحب الله ذا الجهر بالسوء إلا من ظلم، على البذل. وقال مجاهد: نزلت في الضيافة فرخص له أن يقول فيه (٢). قال ابن جريج عن مجاهد: نزلت في رجل ضاف رجلاً بفلاة من الأرض فلم يضيفه فنزلت ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ ورواه ابن أبي نجيح أيضاً عن مجاهد؛ قال: نزلت هذه الآية ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ في الرجل يمر بالرجل فلا يضيفه فرخص له أن يقول فيه: إنه لم يحسن ضيافته (٣). وقد استدل من أوجب الضيافة بهذه الآية؛ قالوا: لأن الظلم ممنوع منه فدل على وجوبها؛ وهو قول الليث بن سعد. والجمهور على أنها من مكارم

(١) مرسل: الطبري (٥/٦) في تفسيره.

(٢) مرسل: الواحدي ص (١٥٢) في أسباب النزول.

(٣) ضعيف: اجتمعت فيه علتان: إرسال مجاهد، والانقطاع بين ابن جريج ومجاهد، كما أن ابن جريج مدلس

الطبري (٥/٦) في تفسيره.

الأخلاق وسيأتي بيانها في «هود» والذي يقتضيه ظاهر الآية أن للمظلوم أن ينتصر من ظالمه ولكن مع اقتصاد إن كان مؤمناً كما قال الحسن؛ فأما أن يقابل القذف بالقذف ونحوه فلا؛ وقد تقدم في «البقرة». وإن كان كافراً فأرسل لسانك وادع بما شئت من الهلكة وبكل دعاء؛ كما فعل النبي ﷺ حيث قال: «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»<sup>(١)</sup> وقال: «اللهم عليك بفلان وفلان»<sup>(٢)</sup> كما هم. وإن كان مجاهرأ بالظلم دعى عليه جهراً، ولم يكن له عرض مُحترَم ولا بدن مُحترَم ولا مال مُحترَم. وقد روى أبو داود: عن عائشة قالت: سرق لها فجعلت تدعو عليه؛ فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسبَّحِي عنه»<sup>(٣)</sup> أي لا تخفِي عنه العقوبة بدعائك عليه. وروي أيضاً عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: «لي الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته»<sup>(٤)</sup>. قال ابن المبارك: يحل عرضه يغلظ له، وعقوبته يحبس له. وفي صحيح مسلم: «مطل الغنى ظلم»<sup>(٥)</sup>. فالموسر المتمكن إذا طولب بالأداء ومطل ظلم، وذلك يبيح من عرضه أن يقال فيه: فلان يمطل الناس ويحبس حقوقهم ويبح للإمام أدبه وتعزيره حتى يرتدع عن ذلك؛ حكى معناه عن سفيان، وهو معنى قول ابن المبارك رضي الله عنهما.

**الثانية:** وليس من هذا الباب ما وقع في صحيح مسلم من قول العباس في علي رضي الله عنهما بحضرة عمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا الكاذب الأثم الغادر الخائن<sup>(٦)</sup>. الحديث. ولم يردّ عليه واحد منهم؛ لأنها كانت حكومة، كل واحد منهما يعتقدها لنفسه، حتى أنفذ فيها عليهم عمر الواجب؛ قاله ابن العربي. وقال علماؤنا: هذا إنما يكون فيما إذا استوت المنازل أو تقاربت، وأما إذا تفاوتت، فلا تُمكن الغوغاء من أن تستطيل على الفضلاء، وإنما تطلب حقها بمجرد الدعوى من غير تصريح بظلم ولا غضب؛ وهذا صحيح وهليه تدل الآثار. ووجه آخر وهو أن هذا القول أخرجه من العباس الغضب وصولته سلطة العمومة فإن العم صنو الأب<sup>(٧)</sup>، ولا شك أن الأب إذا أطلق هذه الألفاظ على ولده إنما يحمل ذلك منه على أنه قصد الإغلاظ والرّدع مبالغة في تأديبه، لا أنه موصوف بتلك الأمور؛ ثم انضاف إلى هذا أنهم في حاجة ولاية دينية؛ فكان العباس يعتقد أن مخالفته فيها لا تجوز، وأن مخالفته فيها تؤدي إلى أن يتصف المخالف بتلك الأمور؛ فأطلقها بيوادر الغضب على هذه الأوجه؛ ولما علم الحاضرون ذلك لم ينكروا عليه؛ أشار إلى هذا المازري والقاضي عياض وغيرهما.

**الثالثة:** بما من قرأ «ظلم» بالفتح في الظاء واللام وهي قراءة زيد بن أسلم، وكان من العلماء

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٢٠) في الصلاة، ومسلم (١٧٩٤) في الجهاد عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) ضعيف: أبو داود (٤٩٠٩) في الأدب وضعفه الألباني هناك.

(٤) حسن: وقد سبق.

(٥) متفق عليه: البخاري (٢٢٨٧) في الحوالة، ومسلم (١٥٦٤) في المساقاة.

(٦) متفق عليه: البخاري (٣٠٩٤) في فرض الخمس، ومسلم (٧٥٧) في الجهاد.

(٧) صنو أبيه: الصنو هو طلوع النخلتين من عرق واحد وجمعه صنوان النهاية (٥٧/٣) لابن الأثير.

بالقرآن بالمدينة بعد محمد بن كعب القرظي، وقراءة ابن أبي إسحاق والضحاك وابن عباس وابن جبير وعطاء بن السائب فالمعنى: إلا من ظلم في فعل أو قول فاجهروا له بالسوء من القول؛ في معنى النهي عن فعله والتوبيخ له والردّ عليه؛ المعنى لا يجب الله أن يقال لمن تاب من النفاق: ألسنت نافقت؟ إلا من ظلم، أي أقام على النفاق؛ ودل على هذا قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة: ١٦٠] [النساء: ١٤٦]. قال ابن زيد: وذلك أنه سبحانه لما أخبر عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من النار كان كذلك جهراً بسوء من القول، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] على معنى التأنيس والاستدعاء إلى الشكر والإيمان. ثم قال للمؤمنين: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ في إقامته على النفاق؛ فإنه يقال له: ألسنت المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدرك الأسفل من النار؟ ونحو هذا من القول. وقال قوم: معنى الكلام: لا يجب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول، ثم استثنى استثناء منقطعاً؛ أي لكن من ظلم فإنه يجهر بالسوء ظلماً وعدواناً وهو ظالم في ذلك.

**قلت:** وهذا شأن كثير من الظلمة ودأبهم؛ فإنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم وينالون من عرض مظلومهم ما حرم عليهم. وقال أبو إسحاق الزجاج: يجوز أن يكون المعنى ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فقال سوء؛ فإنه ينبغي أن تأخذوا على يديه؛ ويكون الاستثناء ليس من الأول.

**قلت:** ويدل على هذا أحاديث منها قوله عليه السلام: «خذوا على أيدي سفهاتكم»<sup>(١)</sup>. وقوله: «انصرت أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: هذا نصره مظلوماً فكيف نصره ظالماً؟ قال: «تكفه عن الظلم»<sup>(٢)</sup>. وقال الفراء: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ يعني ولا من ظلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ تحذير للظالم حتى لا يظلم، وللمظلوم حتى لا يتعدى الحد في الانتصار. ثم أتبع هذا بقوله: ﴿إِنْ تَدَاوَا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ﴾ فندب إلى العفو ورغب فيه. والعفو من صفة الله تعالى مع القدرة على الانتقام؛ وقد تقدم في «آل عمران» فضل العافين عن الناس. ففي هذه الألفاظ اليسيرة معان كثيرة لمن تأملها. وقيل: إن عفوت فإن الله يعفو عنك. روى ابن المبارك قال: حدثني من سمع الحسن يقول: إذا جثت الأمم بين يدي رب العالمين يوم القيامة نودي ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا؛ يصدق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُقْرَبُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۗ﴾

(١) ضعيف : أورده السيوطي في الجامع الصغير (٣٨٩٤) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(٢) صحيح : سبق روايته عند البخاري في المظالم .

(٣) ضعيف : لجهالة فيه بين ابن المبارك والحسن .

فيه ثلاث مسائل:

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ لما ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب، اليهود والنصارى؛ إذ كفروا بمحمد ﷺ، وبين أن الكفر به كفر بالكل؛ لأنه ما من نبي إلا وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومعنى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: بين الإيمان بالله ورسوله؛ فنص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسوله كفر؛ وإنما كان كفراً لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على السنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها؛ فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية. وكذلك التفريق بين رسله في الإيمان بهم كفر، وهي:

**المسألة الثانية:** قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد؛ وقد تقدم هذا من قولهم في «البقرة». ويقولون لعوامهم: لم نجد ذكر محمد في كتبنا. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ أي يتخذوا بين الإيمان والجحد طريقاً، أي ديناً مبتدعاً بين الإسلام واليهودية، وقال: ﴿ذَلِكَ﴾ ولم يقل ذينك؛ لأن ذلك تقع للثنين ولو كان ذينك لجاز.

**الثالثة:** قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ تأكيد يزيل التوهم في إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله؛ وإذا كفروا برسوله فقد كفروا به عز وجل، وكفروا بكل رسول مبشّر بذلك الرسول؛ فلذلك صاروا الكافرين حقاً. و﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يقرم مقام المفعول الثاني لـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾؛ أي أعدنا لجميع أصنافهم ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: مذلاً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

يعني به النبي ﷺ وأُمَّته.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُتَّبِعُونَ﴾

سألت اليهود محمداً ﷺ أن يصعد إلى السماء وهم يرونه فينزل عليهم كتاباً مكتوباً فيما يدعيه على صدقه دفعة واحدة، كما أتى موسى بالتوراة؛ تعنتا له ﷺ؛ فأعلم الله عز وجل أن آباءهم قد عتوا موسى عليه السلام بأكثر من هذا ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً؛ وقد تقدم في «البقرة». و﴿جَهْرَةً﴾ نعت لمصدر محذوف أي: رؤية جهرة؛ فعوقبوا بالصاعقة لعظم ما جاؤوا به من السؤال والظلم من بعد ما رأوا من المعجزات.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ في الكلام حذف تقديره: فأحييناهم فلم يبرحوا فلتخذوا

العجل؛ وقد تقدم في «البقرة» ويأتي ذكره في «طه» إن شاء الله. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: البراهين والدلالات والمعجزات الظاهرات من اليد والعصا وقلق البحر وغيرها بأنه لا معبود إلا الله عز وجل. ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أي عما كان منهم من التعنت. ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة بيّنة وهي الآيات التي جاء بها؛ وسميت سلطاناً لأن من جاء بها قاهر بالحجة، وهي قاهرة للقلوب، بأن تعلم أنه ليس في قوى البشر أن يأتوا بمثلها.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي بسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ منهم، وهو العمل بما في التوراة؛ وقد تقدم رفع الجبل ودخولهم الباب في «البقرة». و ﴿سُجَّدًا﴾ نصب على الحال.

وقرأ ورش وحده «وقلنا لهم لا تعدوا في السبت»<sup>(١)</sup> بفتح العين من عداً يعدو عدواً وعدواناً وعدواً وعداءً، أي: باقتناص الحيتان كما تقدم في «البقرة». والأصل فيه تعدوا أدغمت التاء في الدال؛ قال النحاس: ولا يجوز إسكان العين ولا يوصل إلى الجمع بين ساكنين في هذا، والذي يقرأ بها إنما يروم الخطأ. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يعني العهد الذي أخذ عليهم في التوراة. وقيل: عهد مؤكد باليمين فسمي غليظاً لذلك.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَعْتِرِ حَتَّى وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وَكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتِنًا عَظِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ خفض بالباء و «ما» زائدة مؤكدة كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد تقدم؛ والباء متعلقة بمحذوف، التقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم؛ عن قتادة وغيره. وحذف هذا لعلم السامع. وقال أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي: هو متعلق بما قبله؛ والمعنى فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إلى قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ قال: ففسر ظلمهم الذي أخذتهم الصاعقة من أجله بما بعده من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وسائر ما بين من الأشياء التي ظلموا فيها أنفسهم. وأنكر ذلك الطبري وغيره؛ لأن الذين أخذتهم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتهم برميهم بالبهتان. قال المهدوي وغيره: وهذا لا يلزم؛ لأنه يجوز أن يخبر عنهم والمراد آباؤهم؛ على ما تقدم في «البقرة». قال الزجاج: المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرماً عليهم طيبات أحلت لهم؛ لأن هذه القصة تمتد إلى قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ [النساء: ١٦٠]. ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي ﷺ. وقيل: المعنى فبنقضهم ميثاقهم وفعلهم كذا وفعلهم

(١) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص ١٠٦).

كذا طبع الله على قلوبهم. وقيل: المعنى فينقضهم لا يؤمنون إلا قليلاً؛ والفاء مقحمة. و﴿كفرهم﴾ عطف، وكذا و﴿وقتلهم﴾. والمراد ﴿بآيات الله﴾ كتبهم التي حرفوها. و﴿غُفُّ﴾ جمع غلاف؛ أي: قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا. وقيل: هو جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف؛ أي: قلوبنا في أعطية فلا نفقه ما نقول؛ وهو كقوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْتَةٍ﴾ [فصلت: ٥] وقد تقدم هذا في «البقرة» وغرضهم بهذا درء حجة الرسل. والطبع الختم؛ وقد تقدم في «البقرة»: ﴿وَيَكْفُرَهُمْ﴾ أي: جزء لهم على كفرهم؛ كما قال: ﴿وَلَكِنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٨٨] أي: إلا إيماناً قليلاً أي: ببعض الأنبياء، وذلك غير نافع لهم. ثم كرر و﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ ليخبر أنهم كفروا كفراً بعد كفر. وقيل: المعنى ﴿وَيَكْفُرَهُمْ﴾ بالمسيح؛ فحذف لدلالة ما بعده عليه، والعامل في ﴿وَيَكْفُرَهُمْ﴾ هو العامل في بـ ﴿نَقَضِهِمْ﴾ لأنه معطوف عليه، ولا يجوز أن يكون العامل فيه ﴿طبع﴾. والبهتان العظيم رميها بيوسف النجار وكان من الصالحين منهم. والبهتان الكذب المفرط الذي يتعجب منه وقد تقدم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ كسرت «إن» لأنها مبتدأة بعد القول وفتحها لغة. وقد تقدم في «آل عمران» اشتقاق لفظ المسيح. ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ بدل، وإن شئت على معنى أعني. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ رد لقولهم. ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: ألقى شبهه على غيره كما تقدم في «آل عمران». وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾. والإخبار قيل: إنه عن جميعهم. وقيل: إنه لم يختلف فيه إلا عوامهم؛ ومعنى اختلافهم قول بعضهم إنه إله، وبعضهم هو ابن الله. قاله الحسن: وقيل اختلافهم أن عوامهم قالوا قتلنا عيسى. وقال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه. وقيل: اختلافهم أن السُّطُورِيَّةَ من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته. وقالت الملكانية: وقع الصلب والقتل على المسيح بكماله ناسوته ولاهوته. وقيل: اختلافهم هو أن اليهود قالوا: إن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وقيل: اختلافهم هو أن اليهود قالوا: نحن قتلناه، لأن يهوذا رأس اليهود وهو الذي سعى في قتله. وقالت طائفة من النصارى: بل قتلناه نحن؛ وقالت طائفة منهم: بل رفعه الله إلى السماء ونحن ننظر إليه. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ من رائدة؛ وتم الكلام. ثم قال جل وعز: ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء ليس من الأول في موضع نصب، ويجوز أن يكون في موضع رفع على البدل؛ أي: ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وأنشد سيبويه:

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال ابن عباس والسدي: المعنى ما قتلوا ظنهم يقيناً؛ كقولك:

قتلته علماً إذا علمته علماً تاماً؛ فالهاء عائدة على الظن. قال أبو عبيد: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً لقال: وما قتلوه فقط. وقيل: المعنى وما قتلوا الذي شبه لهم أنه عيسى يقيناً؛ فالوقف على هذا على **﴿يَقِيناً﴾**. وقيل؛ المعنى وما قتلوا عيسى، والوقف على **﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾** و **﴿يَقِيناً﴾** نعت لمصدر محذوف، وفيه تقديران: أحدهما أي: قالوا هذا قولاً يقيناً، أو قال الله هذا قولاً يقيناً. والقول الآخر أن يكون المعنى وما علموه علماً يقيناً. النحاس: إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقيناً فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد «بَلْ» فيما قبلها لضعفها. وأجاز ابن الأنباري الوقف على **﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾** على أن ينصب **﴿يَقِيناً﴾** بفعل مضمَر هو جواب القسم، تقديره: ولقد صدقتم يقيناً أي: صدقاً يقيناً. **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾** ابتداء كلام مستأنف؛ أي: إلى السماء، والله تعالى متعال عن المكان؛ وقد تقدم كيفية رفعه في «آل عمران». **﴿وَوَكَانَ اللَّهُ غَزِيْرًا﴾** أي: قوياً بالنقمة من اليهود فسלט عليهم بطرس بن أستيسانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة. **﴿حَكِيمًا﴾** حكم عليهم باللعنة والغضب.

**﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾** (١٥٣)

قوله تعالى: **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾** قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة: المعنى ليؤمنن بالمسيح **﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾** أي: الكتابي<sup>(١)</sup>؛ فالهاء الأولى عائدة على عيسى، والثانية على الكتابي؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين الملك، ولكنه إيمان لا ينفع؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبس بحالة الموت؛ فاليهودي يقرّ في ذلك الوقت بأنه رسول الله، والنصراني يقرّ بأنه كان رسول الله. وروى أن الحجاج سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتي بالأسير من اليهود والنصارى فأمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان؛ فقال له شهر بن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة يقرّ بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به ولا ينفعه؛ فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا؟ قال: أخذته من محمد ابن الحنفية؛ فقال له الحجاج: أخذت من عين صافية<sup>(٢)</sup>. وروى عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته؛ فقيل له: إن غرق أو احترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى؟ فقال: نعم وقيل: إن الهاءين جميعاً لعيسى عليه السلام؛ والمعنى ليؤمنن به من كان حياً حين نزوله يوم القيامة<sup>(٣)</sup>؛ قاله قتادة وابن زيد وغيرهما واختاره الطبري. وروى يزيد بن زريع عن رجل عن الحسن في قوله تعالى: **﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾** قال: قبل موت عيسى؛ والله إنه لحَيّ عند الله الآن؛ ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون<sup>(٤)</sup>؛ ونحوه عن الضحاك وسعيد بن جبيرة. وقيل: **﴿لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾** أي: بمحمد عليه السلام وإن لم يجر له ذكر؛ لأن هذه الأقسام

(١) حسن إلى ابن عباس: الطبري (٦/ ٢٠) في تفسيره.

(٢) لم أجده.

(٣) انظر: الطبري (٦/ ٢٥) في تفسيره.

(٤) ضعيف: لجهالة الحسن فيه، ورواه الطبري (٦/ ٢٣) في تفسيره بنحوه.

أنزلت عليه والمقصود الإيمان به، والإيمان بعيسى يتضمن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام أيضاً؛ إذ لا يجوز أن يفرق بينهم. وقيل: ﴿لِيُؤْمِنَ بِهِ﴾ أي: بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المعاناة. والتأويلان الأولان أظهر. وروى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَلَيَقْتُلَنَّ الدَّجَالَ وَلَيَقْتُلَنَّ الْخَنزِيرَ وَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ وَتَكُونَ السَّجْدَةُ وَاحِدَةً لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»<sup>(١)</sup> ثم قال أبو هريرة: واقروا إن شئتم ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال أبو هريرة: قبل موت عيسى؛ يعيدها ثلاث مرات.

وتقدير الآية عند سيبويه؛ وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمننَّ به. وتقدير الكوفيين: وإن من أهل الكتاب إلا من ليؤمننَّ به، وفيه قبح، لأن فيه حذف الموصول، والصلة بعض الموصول فكأنه حذف بعض الاسم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: بتكذيب من كذبه وتصديق من صدقه.

﴿فَيُظَلِّمَنَّ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿﴾  
فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَيُظَلِّمَنَّ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قال الزجاج: هذا بدل من ﴿فَبِمَا نَقُضُوا﴾ والطيبات ما نصه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الانعام: ١٤٦] وقدم الظلم على التحريم إذ هو الغرض الذي قصد إلى الإخبار عنه بأنه سبب التحريم. ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وبصدهم أنفسهم وغيرهم عن اتباع محمد ﷺ. ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ كله تفسير للظلم الذي تعاطوه، وكذلك ما قبله من نقضهم الميثاق وما بعده؛ وقد مضى في «آل عمران» أن اختلاف العلماء في سبب التحريم على ثلاثة أقوال هذا أحدها.

الثانية: قال ابن العربي<sup>(٢)</sup>: لا خلاف في مذهب مالك أن الكفار مخاطبون، وقد بين الله في هذه الآية أنهم قد نهوا عن الربا وأكل الأموال بالباطل؛ فإن كان ذلك خيرا عما نزل على محمد في القرآن وأنهم دخلوا في الخطاب فيها ونعمت، وإن كان خيرا عما أنزل الله على موسى في التوراة، وأنهم بدّلوا وحرفوا وعصوا وخالفوا فهل يجوز لنا معاملتهم والقوم قد أفسدوا أموالهم في دينهم أم لا؟ فظنت طائفة أن معاملتهم لا تجوز؛ وذلك لما في أموالهم من هذا الفساد. والصحيح جواز معاملتهم مع رباهم واقتحام ما حرم الله سبحانه عليهم؛ فقد قام الدليل القاطع على ذلك قرآنا وستة؛ قال الله تعالى ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلًّا لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] وهذا نص؛ وقد عامل النبي ﷺ اليهود. ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في شعير أخذه لعياله<sup>(٣)</sup>. والحاسم لداء الشك والخلاف

(١) متفق عليه: البخاري (٣٤٤٨) في الأنبياء، مسلم (١٥٥) في الإيمان.

(٢) ابن العربي (١/ ٥١٤) في أحكام القرآن.

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٠٦٨) في البيوع، ومسلم (١٦٠٣) في المساقاة، عن عائشة رضي الله عنها.

اتفاق الأمة على جواز التجارة مع أهل الحرب؛ وقد سافر النبي ﷺ إليهم تاجراً، وذلك من سفره أمر قاطع على جواز السفر إليهم والتجارة معهم. فإن قيل: كان ذلك قبل النبوة؛ قلنا: إنه لم يتدنس قبل النبوة بحرام ثبت ذلك تواتراً ولا اعتذر عنه إذ بعث، ولا منع منه إذ نبئ، ولا قطعه أحد من الصحابة في حياته، ولا أحد من المسلمين بعد وفاته؛ فقد كانوا يسافرون في فك الأسرى وذلك واجب، وفي الصلح كما أرسل عثمان وغيره؛ وقد يجب وقد يكون ندباً؛ فأما السفر إليهم لمجرد التجارة فمباح.

﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ استثنى مؤمني أهل الكتاب؛ وذلك أن اليهود أنكروا وقالوا: إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل وأنت تحملها ولم تكن حرمت بظلمنا؛ فنزل ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ﴾ والراسخ هو المبالغ في علم الكتاب الثابت فيه، والرسوخ الثبوت؛ وقد تقدم في «آل عمران» والمراد عبدالله بن سلام وكعب الأحبار ونظراؤهما. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: من المهاجرين والأنصار، أصحاب محمد ﷺ. ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ قرأ الحسن ومالك بن دينار وجماعة: «والمقيمين» على العطف، وكذا هو في حرف عبدالله، وأما حرف أبي فهو فيه ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ كما في المصاحف. واختلف في نصبه على أقوال ستة؛ أصحها قول سيبويه بأنه نصب على المدح؛ أي: وأعني المقيمين؛ قال سيبويه: هذا باب ما ينتصب على التعظيم ومن ذلك ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ وأنشد.

وكل قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نغيراً أطاعت أمر غاويها

ويروى (أمر مرشدهم).

الظَّاعِنِينَ وَمَا يُظْعِنُونَا أَحَدًا وَالْقَائِلُونَ لِمَنْ دَارُ نُحْلِيهَا

وأنشد:

لا يبعدن قومي الذين هم سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُرُ  
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأَزْرِ

قال النحاس: وهذا أصح ما قيل في ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ وقال الكسائي: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ معطوف على «ما» قال النحاس قال الأخفش: وهذا بعيد؛ لأن المعنى يكون يؤمنون بالمقيمين. وحكى محمد بن جرير أنه قيل له: إن المقيمين ههنا الملائكة عليهم السلام؛ لدوامهم على الصلاة والتسبيح والاستغفار، واختار هذا القول، وحكى أن النصب على المدح بعيد؛ لأن المدح إنما يأتي بعد تمام الخير، وخبر الراسخين في ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فلا ينتصب ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ على المدح. قال النحاس: ومذهب سيبويه في قوله: والمؤتون رفع بالابتداء. وقال غيره: هو مرفوع على إضمار مبتدأ؛ أي: هم المؤتون الزكاة وقيل: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ عطف على الكاف التي في «قَبْلِكَ» أي: من قبلك ومن قبل

المقيمين. وقيل: ﴿المُقيمين﴾ عطف على الكاف التي في «إليك» وقيل: هو عطف على الهاء والميم أي: منهم ومن المقيمين؛ وهذه الأجوبة الثلاثة لا تجوز؛ لأن فيها عطف مظهر على مضمرة مخفوض. والجواب السادس ما روى أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن هذه الآية وعن قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣] وقوله في «المائدة»: ﴿وَالصَّابُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] فقالت للسائل: يا ابن أخي الكتاب أخطؤوا<sup>(١)</sup>. وقال أبان بن عثمان: كان الكاتب يملئ عليه فيكتب فكتب ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال له: ما أكتب؟ فقيل له: اكتب ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ فمن ثم وقع هذا<sup>(٢)</sup>. قال القشيري: وهذا المسلك باطل؛ لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوة في اللغة، فلا يظن بهم أنهم يدرجون في القرآن ما لم ينزل. وأصح هذه الأقوال قول سيبويه وهو قول الخليل، وقول الكسائي هو اختيار القفال والطبري، والله أعلم.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾. هذا متصل بقوله: ﴿بِسْمِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣] فأعلم تعالى أن أمر محمد ﷺ كأمير من تقدمه من الأنبياء. وقال ابن عباس فيما ذكره ابن إسحاق: نزلت في قوم من اليهود منهم سكين وعدي بن زيد قالوا للنبي ﷺ: ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى فكذبهم الله<sup>(٣)</sup>. والوحي إعلام في خفاء؛ يقال: وحى إليه بالكلام يحيى وحياً وأوحى يوحي إيحاء. ﴿إِلَى نُوحٍ﴾ قدمه لأنه أول نبي شرعت له لسانه الشرائع. وقيل غير هذا؛ ذكر الزبير بن بكار حدثني أبو الحسن علي بن المغيرة عن هشام بن محمد ابن السائب عن أبيه قال: أول نبي بعثه الله تبارك وتعالى في الأرض إدريس واسمه أخنوخ؛ ثم انقطعت الرسل حتى بعث الله نوح بن ملك بن مُتوشَلَخ بن أخنوخ، وقد كان سام بن نوح نبياً، ثم انقطعت الرسل حتى بعث الله إبراهيم نبياً واتخذة خليلاً؛ وهو إبراهيم بن تَارَخ واسم تَارَخ أَرَزَ ثم بعث إسماعيل بن إبراهيم فمات بمكة، ثم إسحاق بن إبراهيم فمات بالشام، ثم لوط وإبراهيم عمه، ثم يعقوب وهو إسرائيل بن إسحاق ثم يوسف بن يعقوب ثم شعيب بن يُوَيْب، ثم هود بن عبدالله، ثم صالح بن أسف، ثم موسى وهارون ابنا عمران. ثم أيوب ثم الخضر وهو خضرون، ثم داود بن إيشا ثم سليمان بن داود، ثم يونس بن متى، ثم إلياس ثم ذا الكفل واسمه عويدنا من سبط يهوذا بن يعقوب؛ قال: وبين موسى بن عمران ومريم بنت عمران أم عيسى ألف سنة وسبعمئة سنة وليس من

(١، ٢) هذا باطل: ولا يصح وهو محمول على الآتي: «وأن العرب لا تحب توالي الأمثال فهذا على سبيل الابتدار وقطع اللل، والله أعلم، وكيف يتعهد الله بحفظ كتابه ثم يتركه فما قاله إلا زنديق والله أعلم وانظر الطبري (٦/ ٢٨) في تفسيره.

(٣) هذا ضعيف جداً: فيه محمد بن أبي محمد وفيه جهالة، وفيه عنينة ابن إسحاق الراوي عنه، وفيه الشك من محمد عن سعيد بن جبيرة وقد سبق، وانظر الطبري (٦/ ٣١) في تفسيره.

سبط؛ ثم محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب النبي ﷺ. قال الزبير: كل نبي ذكر في القرآن من ولد إبراهيم غير إدريس ونوح ولوط وهود وصالح. ولم يكن من العرب أنبياء إلا خمسة: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين؛ وإنما سماوا عرباً لأنه لم يتكلم بالعربية غيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ هذا يتناول جميع الأنبياء ثم قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فخص أقواماً بالذكر تشريفاً لهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَلَأْنَاهُ كُنُوزًا وَوَجَعَلْنَاهُ نَبِيًّا﴾ وشرفه حيث قدمه في الذكر على عيسى رداً على اليهود. وفي هذه الآية تنبيه على قدر نبينا ﷺ وشرفه حيث قدمه في الذكر على أنبيائه؛ ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ﴾ [الاحزاب: ٧] الآية؛ ونوح مشتق من النوح؛ وقد تقدم ذكره مؤعباً في «آل عمران» وانصرف وهو اسم أعجمي؛ لأنه على ثلاثة أحرف فخف؛ فأما إبراهيم وإسماعيل وإسحاق فأعجمية وهي معرفة ولذلك لم تنصرف، وكذا يعقوب وعيسى وموسى إلا أن عيسى وموسى يجوز أن تكون الألف فيهما للتأنيث فلا ينصرفان في معرفة ولا نكرة؛ فأما يونس ويوسف فروى عن الحسن أنه قرأ: «ويونس» بكسر النون وكذا «يوسف» يجعلهما من أنس وآسف، ويجب على هذا أن يُصرفا ويُهمزا ويكون جمعهما يأنس ويأسف. ومن لم يهمز قال: يونس ويوسف. وحكى أبو زيد: يونس ويوسف بفتح النون والسين؛ قال المهدي: وكان «يونس» في الأصل فعل مبني للفاعل، و«يونس» فعل مبني للمفعول، فسمي بهما.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ الزبور كتاب داود وكان مائة وخمسين سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، وإنما هي حكم ومواعظ. والزبور الكتابة، والزبور بمعنى المزبور أي: المكتوب، كالرَسُول والرُّكُوب والخُوب. وقرأ حمزة «زُبوراً» بضم الزاي جمع زَبْر كَفَلَسَ وَقُلُوسٌ، وزَبْرٌ بمعنى المزبور؛ كما يقال: هذا الدرهم ضَرَبَ الأمير أي: مَضْرُوبه؛ والأصل في الكلمة التوثيق؛ يقال: بثر مزبورة أي: مطوية بالحجارة، والكتاب يسمى زبوراً لقوة الوثيقة به. وكان داود عليه السلام حسن الصوت؛ فإذا أخذ في قراءة الزبور اجتمع إليه الإنس والجن والطير والوحش لحسن صوته. وكان متواضعاً يأكل من عمل يده؛ روى أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه قال: أن كان داود ﷺ ليخطب الناس وفي يده القمّة من الخوص، فإذا فرغ ناولها بعض من إلى جنبه يبيعها، وكان يصنع الدُّرُوعَ، وستأتي في الحديث: «الزرقة في العين يمن» (١) وكان داود أزرق.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني بمكة. ﴿وَرُسُلًا﴾ منصوب بإضمار فعل، أي: وأرسلنا رسلاً؛ لأن معنى «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ» وأرسلنا نوحاً. وقيل: هو منصوب بفعل دلّ عليه ﴿قَصَصْنَاهُمْ﴾ أي: وقصصنا رسلاً؛ ومثله ما أشد سبويه:

أصبحتُ لا أحملُ السِّلَاحَ ولا أملكُ رأسَ البعيرِ إنْ نَفَرَا  
والذَّئْبُ أخشاهُ إنْ مررتُ بهُ وَحَدِي وأخشى الرِّيحَ والمَطْرَا

أي: وأخشى الذئب. وفي حرف أبي «وَرُسُلٌ» بالرفع على تقدير ومنهم رسل. ثم قيل: إن الله تعالى لما قصَّ في كتابه بعض أسماء أنبيائه، ولم يذكر أسماء بعض، ولمن ذكر فضل على من لم يذكر قالت اليهود؛ ذكر محمد الأنبياء ولم يذكر موسى؛ فنزلت ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر معناه التأكيد؛ يدل على بطلان من يقول: خلق لنفسه كلاما في شجرة فسمعه موسى، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلماً.

قال النحاس: وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً، وأنه لا يجوز في قول الشاعر:

امْتَلَأَ الحَوْضُ وقالَ قَطْنِي

أن يقول: قال قولاً؛ فكذا لما قال: ﴿تَكْلِيمًا﴾ ﴿وَجِبَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يُعْقَلُ. وقال وهب بن منبه: إن موسى عليه السلام قال: «ياربِّ بِمَ اتَّخَذْتَنِي كَلِيمًا؟» طلب العمل الذي أسعده الله به ليكثر منه؛ فقال الله تعالى له: أتذكر إذ نَدَّ من عنمك جَدِي فاتبعته أكثر النهار وأتعبك، ثم أخذته وقبلته وضممته إلى صدرك وقلت له: أتعبتني وأتعبت نفسك، ولم تغضب عليه؛ من أجل ذلك اتخذتك كليماً<sup>(١)</sup>.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ هو نصب على البدل من ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ﴾ ويجوز أن يكون على إضمار فعل؛ ويجوز نصبه على الحال؛ أي: كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده رسلاً. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا ما أرسلت إلينا رسولا. وما أنزلت علينا كتاباً؛ وفي التنزيل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُمْ بِعَذَابٍ مِّنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه: ١٣٤] وفي هذا كله دليل واضح أنه لا يجب شيء من ناحية العقل. وروي عن كعب الأحبار أنه قال: كان الأنبياء ألفي ألف ومائتي ألف. وقال مقاتل: كان الأنبياء ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً.

وروي أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثتُ على أثر ثمانية آلاف من الأنبياء منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل»<sup>(٢)</sup> ذكره أبو الليث السمرقندي في التفسير له؛ ثم أسند عن شعبة عن أبي إسحاق عن الحارث الأعور عن أبي ذر الغفاري قال: قلت يا رسول الله كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون؟ قال: «كانت الأنبياء مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي وكان

(١) الخبير من الإسرائيليات ولا أراه يصح.

(٢) (٣، ٢) ضعيف جداً: أبو يعلى (٤١٣٢) في مسنده، وفيه يزيد الرقاشي، وإبراهيم بن المهاجر وهما ضعيفان كما قال الذهبي رحمه الله تعقياً على تصحيح الحاكم له (٥٩٧/٢) في المستدرک.

المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر» (١).

قلت: هذا أصح ما روي في ذلك؛ خرجه الأجرى وأبو حاتم البستي في المسند الصحيح له.

﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ ﴾ رفع بالابتداء، وإن شئت شددت النون ونصبت. وفي الكلام حذف دل عليه الكلام؛ كأن الكفار قالوا: ما نشهد لك يا محمد فيما تقول فمن يشهد لك؟ فنزل ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ ﴾. ومعنى ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أي: وهو يعلم أنك أهل لإنزاله عليك؛ ودلت الآية على أنه تعالى عالم بعلم. ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ ذكر شهادة الملائكة ليقابل بها نفي شهادتهم. ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أي: كفى الله شاهداً، والباء زائدة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني اليهود أي: ظلموا. ﴿ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي: عن اتباع الرسول محمد ﷺ بقولهم: ما نجد صفته في كتابنا، وإنما النبوة في ولد هارون وداود، وإن في التوراة أن شرع موسى لا ينسخ. ﴿ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا ﴾ لأنهم كفروا ومع ذلك منعوا الناس من الإسلام.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَفْغِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ ضَالُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾ يعني اليهود؛ أي: ظلموا محمداً بكتمان نعته وأنفسهم إذ كفروا، والناس إذ كتموهم. ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَفْغِرْ لَهُمْ ﴾ هذا فيمن يموت على كفره ولم يتب.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ هذا خطاب للجميع. ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ ﴾ يريد محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ بالقرآن. وقيل: بالدين الحق؛ وقيل: بشهادة أن لا إله إلا الله؛ وقيل: الباء للتعدي؛ أي: جاءكم ومعه الحق؛ فهو في موضع الحال.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ في الكلام إضمار؛ أي: وآتوا خيراً لكم؛ هذا مذهب سيويه، وعلى قول الفراء نعت لمصدر محذوف؛ أي: إيماناً خيراً لكم، وعلى قول أبي عبيدة يكن خيراً لكم.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَيْنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ نهي عن الغلو. والغلو التجاوز في الحد؛ ومنه غلا السعر يغلو غلاء؛ وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لدايتها؛ ويعنى بذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلوا النصارى فيه حتى جعلوه رباً؛ فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر؛ ولذلك قال مطرف بن عبد الله: الحسنة بين سيئين؛ وقال الشاعر:

وأوف ولا تسوف حقك كله      وصادح فلم يستوف قطُّ كريم  
ولا تغلُ في شيءٍ من الأمر واقتصد      كلاً طرفي قصد الأمور دميم

وقال آخر:

عليك بأوساط الأمور فإنها      نجاةٌ ولا تركب ذلولا ولا صعبا  
وفي صحيح البخاري عنه عليه السلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى وقولوا عبدُ الله ورسوله» (١).

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أي: لا تقولوا إن له شريكاً أو ابناً. ثم بين تعالى حال عيسى عليه السلام وصفته فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾.

وفيه ثلاث مسائل:

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ ﴾ المسيح رفع بالابتداء؛ و ﴿ عِيسَى ﴾ بدل منه وكذا ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ويجوز أن يكون خبير الابتداء ويكون المعنى: إنما المسيح ابنُ مريم. ودلّ بقوله: ﴿ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ على أن من كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً، وحق الإله أن يكون قديماً لا محدثاً. ويكون ﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ خبيراً بعد خبر.

**الثانية:** لم يذكر الله عز وجل امرأةً وسماها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران؛ فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ؛ فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يتدلفون أسماءهن؛ بل يكتنون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال ونحو ذلك؛ فإن ذكروا الإمام لم يكونوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى في مريم ما قالت، وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يكن عنها بالأموة والعبودية التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمامها.

(١) صحيح: سبق روايته عند البخاري عن عمر رضي الله عنه.

**الثالثة:** اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرر اسمه منسوباً للآم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهاَ إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: هو مكون بكلمة «كن» فكان بشراً من غير أب، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه. وقيل: ﴿كَلِمَتُهُ﴾ بشارة الله تعالى مريم عليها السلام، ورسالته إليها على لسان جبريل عليه السلام؛ وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وقيل: «الكلمة» ههنا بمعنى الآية؛ قال السه تعالى: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ [التحریم: ١٢] و ﴿مَا نَفَذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وكان لعيسى أربعة أسماء؛ المسيح وعيسى وكلمة وروح، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن. ومعنى ﴿أَلْفَاهاَ إِلَى مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريم.

قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هذا الذي أوقع النصرارى في الإضلال؛ فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا؛ وعنه أجوبة ثمانية؛ الأول قال أبي بن كعب: خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق؛ ثم ردها إلى صلب آدم وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام؛ فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم، فكان منه عيسى عليه السلام<sup>(١)</sup>؛ فلهذا قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾. وقيل: هذه الإضافة للتفصيل وإن كان جميع الأرواح من خلقه؛ وهذا كقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِيُوسُفَ إِسْحَاقَ﴾ [الحج: ٢٦] وقيل: قد يسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً، وتضاف إلى الله تعالى فيقال: هذا روح من الله أي: من خلقه؛ كما يقال في النعمة إنها من الله. وكان عيسى يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى فاستحق هذا الاسم. وقيل: يسمى روحاً بسبب نفخة جبريل عليه السلام، ويسمى النفخ روحاً؛ لأنه ریح يخرج من الروح قال الشاعر هو ذو الرمة:

فقلتُ له ارفعها إليك وأحيها بروحك واقته لها قيته قدراً

وقد ورد أن جبريل نفخ في درع مريم فحملت منه بإذن الله؛ وعلى هذا يكون ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ معطوفاً على المضمر الذي هو اسم الله في ﴿أَلْفَاهاَ﴾ التقدير: ألقى الله وجبريل الكلمة إلى مريم. وقيل: ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: من خلقه؛ كما قال: ﴿وَسَخَّرْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجن: ١٣] أي: من خلقه. وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: رحمة منه؛ فكان عيسى رحمة من الله لمن اتبعه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي: برحمة، وقرئ ﴿فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]. وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ وبرهان منه؛ وكان عيسى برهاناً وحجة على قومه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسيح ومرسله، وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهاً. ﴿وَلَا تَقُولُوا آلَهِنَا ثَلَاثَةٌ﴾ عن الزجاج. قال ابن عباس: يريد بالثلاثية الله تعالى وصاحبه وابنه. وقال الفراء وأبو عبيد: أي: لا تقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢]. قال أبو علي: التقدير ولا تقولوا هو ثالث ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف. والنصارى مع فرقهم مجمعون على الثلاثية ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة

(١) حسن موقوف: أحمد (٥ / ١٣٥) في المسند، والحاكم (٢ / ٣٥٣) في المستدرک والطبري (٦ / ٣٩).

قلت: وفيه أبو جعفر الرازي وهو صدوق سيئ الحفظ.

أقائم؛ فيجعلون كل أقنوم إلهاً ويعنون بالأقائم الوجود والحياة والعلم، وربما يعبرون عن الأقائم بالآب والابن وروح القدس؛ فيعون بالآب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، في كلام لهم فيه تخبط بيانه في أصول الدين. ومحصول كلامهم يؤول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه وتعالى على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته؛ وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر، فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالإلهية؛ فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً به؛ وإن لم يسلموا ذلك فلا حجة لهم أيضاً؛ لأنهم معارضون بموسى عليه السلام، وما كاذب يجري على يديه من الأمور العظام، مثل قلب العصا ثعباناً، وقلق البحر واليد البيضاء والمن والسلوى، وغير ذلك؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء؛ فإن أنكروا ذلك فننكر ما يدعونهم أيضاً من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لعيسى؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر.

وقد قيل: إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعد ما رُفِعَ عيسى، يصلون إلى القبلة؛ ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى فقال: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا وجحدنا وإلى النار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛ وإنني أحتال فيهم فأضلهم فيدخلون النار؛ وكان له فرس يقال لها العقاب، فأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بولس عدوكم قد نوديت من السماء أن ليست لك توبة إلا أن تنتصر، فأدخلوه في الكنيسة بيتاً فأقام فيه سنة لا يخرج ليلاً ولا نهاراً حتى تعلم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قبل توبتك فصدقه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسطوراً وأعلمه أن عيسى ابن مريم إله، ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال: لم يكن عيسى يأنس فتأنس ولا بجسم فتجسم ولكنه ابن الله. وعلم رجلاً يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلاً يقال له الملك فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً وقال له: أنت خالصتي ولقد رأيت المسيح في النوم ورضي عني، وقال لكل واحد منهم: إنني غداً أذبح نفسي وأتقرب بها، فادع الناس إلى نحلتي، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته، فتبجح كل واحد منهم طائفة، فاقترتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال؛ والله أعلم. وقد رويت هذه القصة في معنى قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤] وسيأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ ﴿خيراً﴾ منصوب عند سيبويه بإضمار فعل؛ كأنه قال: انتهوا خيراً لكم، لأنه إذا نهاهم عن الشرك فقد أمرهم بإتيان ما هو خير لهم؛ قال سيبويه: وما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ لأنك إذا قلت: انته فانت تخرجه من أمر

وتدخله في آخر؛ وأنشد:

فواعديه سرحتي مالك أو الربا بينهما أسهلاً

ومذهب أبي عبيدة: انتهوا يكن خيراً لكم؛ قال محمد بن يزيد: هذا خطأ؛ لأنه يضم الشرط وجوابه، وهذا لا يوجد في كلام العرب. ومذهب الفراء أنه نعت لمصدر محذوف؛ قال علي بن سليمان: هذا خطأ فاحش؛ لأنه يكون المعنى: انتهوا الانتهاء الذي هو خير لكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذا ابتداء وخير؛ و ﴿وَاحِدٌ﴾ نعت له. ويجوز أن يكون ﴿إِلَهٌ﴾ بدلاً من اسم الله عز وجل و ﴿وَاحِدٌ﴾ خبره؛ التقدير إنما المعبود واحد. ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: تنزيهاً عن أن يكون له ولد؛ فلما سقط «عن» كان «أن» في محل نصب بنزع الخافض؛ أي: كيف يكون له ولد؟ وولد الرجل مُشَبَّه له، ولا شبيه لله عز وجل. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا شريك له، وعيسى ومريم من جملة ما في السموات وما في الأرض، وما فيهما مخلوق، فكيف يكون عيسى إلهاً وهو مخلوق وإن جاز ولد فليجزأ أولاد حتى يكون كل من ظهرت عليه معجزة ولد إله. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: لأوليائه؛ وقد تقدم.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَهًا جَمِيعًا﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أي: لن يأنف ولن يحتشم. ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أي: من أن يكون؛ فهو في موضع نصب. وقرأ الحسن: «إن يكون» بكسر الهمزة على أنها نفي هو بمعنى «ما» والمعنى ما يكون له ولد؛ وينبغي رفع يكون ولم يذكره الرواة. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: من رحمة الله ورضاه؛ فدل بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وكذا ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في «البقرة». ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ﴾ أي: يأنف ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ فلا يفعلها. ﴿فَيَحْشُرْهُمْ إِلَهًا﴾ أي: إلى المحشر. ﴿جَمِيعًا﴾ فيجازي كلا بما يستحق، كما بينه في الآية بعد هذا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾. وأصل ﴿يَسْتَنْكِفُ﴾ نكف؛ فإليه والسين والتاء زوائد؛ يقال: نكفت من الشيء واستنكفت منه وأنكفته أي: نزهته عما يستنكف منه؛ ومنه الحديث سئل عن «سبحان الله» فقال: «إنكاف الله من كل سوء» (١) يعني تنزيهه وتقديسه عن الأنداد والأولاد. وقال الزجاج: استنكف أي: أنف مأخوذ من نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك؛ ومنه الحديث: «ما ينكف العرق عن جبينه» (٢) أي: ما ينقطع؛ ومنه الحديث: «جاء بجيش لا ينكف آخره» (٣) أي: لا ينقطع آخره. وقيل: هو من النكف وهو العيب؛ يقال: ما عليه في هذا الأمر نكف ولا وكف أي: عيب:



وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ رواه مسلم؛ وقال: آخر آية نزلت ﴿وَآتُوا يَوْمَ تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وقد تقدم. ومضى في أول السورة الكلام في ﴿الْكَلَالَةَ﴾ مستوفى (١)، وأن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأب والأم أو للأب وكان لجابر تسع أخوات.

**الثانية:** قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد؛ فاكتفى بذكر أحدهما؛ قال الجرجاني: لفظ الولد ينطلق على الوالد والمولود؛ فالوالد يسمى والدًا لأنه ولد، والمولود يسمى وكلاً لأنه ولد؛ كالذرية فإنها من ذرٍّ ثم تطلق على المولود وعلى الوالد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

**الثالثة:** والجمهور من العلماء من الصحابة والتابعين يجعلون الأخوات عصبة البنات وإن لم يكن معهن أخ، غير ابن عباس؛ فإنه كان لا يجعل الأخوات عصبة البنات؛ وإليه ذهب داود وطائفة؛ وحجتهم ظاهر قول الله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولم يورث الأخت إلا إذا لم يكن للميمت ولد؛ قالوا: ومعلوم أن الابنة من الولد، فوجب ألا ترث الأخت مع وجودها. وكان ابن الزبير يقول بقول ابن عباس في هذه المسألة حتى أخبره الأسود بن يزيد: أن معاذاً قضى في بنت وأخت فجعل المال بينهما نصفين.

**الرابعة:** هذه الآية تسمى بآية الصيف؛ لأنها نزلت في زمن الصيف؛ قال عمر: إني والله لا أدع شيئاً أهم إلي من أمر الكلاله، وقد سألت رسول الله ﷺ عنها فما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها، حتى طعن بإصبعه في جنبي أو في صدري ثم قال: «يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سورة النساء» (٢). وعنه رضي الله عنه قال: ثلاث لأن يكون رسول الله ﷺ بينهن أحب إلي من الدنيا وما فيها: الكلاله والربا والخلافة؛ خرجه ابن ماجه في سننه (٣).

**الخامسة:** طعن بعض الرافضة بقول عمر: «والله لا أدع» الحديث.

**السادسة:** قوله تعالى: ﴿يَسِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾ قال الكسائي: بين الله لكم لئلا تضلوا. قال أبو عبيد؛ فحدثت الكسائي بحديث رواه ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدعون أحدكم على ولده أن يوافق من الله إجابة» (٤) فاستحسنه. قال النحاس: والمعنى عند أبي عبيد لئلا يوافق من الله إجابة، وهذا القول عند البصريين خطأ صراح؛ لأنهم لا يجيزون إضمار لا؛ والمعنى عندهم: بين الله لكم كراهة أن تضلوا. ثم حذف؛ كما قال: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وكذا معنى حديث النبي ﷺ؛ أي: كراهية أن يوافق من الله إجابة. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تقدم في غير موضع. والله أعلم.

تمت سورة «النساء» والحمد لله الذي وفق .

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) صحيح : مسلم (١٦١٧) في الفرائض .

(٣) ضعيف : ابن ماجه (٢٧٢٧) في الفرائض ، وضعفه الألباني هناك .

(٤) صحيح : مسلم (٣٠٠٩) في الزهد عن جابر رضي الله عنه بلفظ : «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أولادكم

ولا تدعوا على أموالكم . . . . .»